من تراث العلامة النَّدوي

مَكانةُ المرأةِ في الإسلام

لِلعَلَّامَة الإِمَام السَّيِّد أبي الحَسَن عَلي الحسني النَّدويّ

إعداد
سيِّد عبد الماجد الغوري

دار ابن كثير

21

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم : (٧١)

مكانة المرأة في الإسلام

مجموعة من المقالات والمحاضرات

حقوق الطبع والتصوير محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

دار ابن كثير
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي
ص.ب: ٣١١ ـ هاتف: ٢٢٢٥٨٧٧ ـ ٢٢٢٨٤٥٠ ـ فاكس: ٢٢٤٣٥٠٢

بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة
ص.ب: ١١٣/٦٣١٨ ـ تلفاكس: ٠١٨١٧٨٥٧ ـ ٠٣٩٠٤٤٥٩

٢١٠,٤
نخ س م

من تراث العلامة الندوي

مكانة المرأة في الإسلام

مجموعة من المقالات والمحاضرات

للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

١٣٣٣ - ١٤٢٠هـ

إعداد

سيد عبد الماجد الغوري

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله .

أما بعد :

لم يكتب العلامة الإمام السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمه الله ـ كتاباً يتعلّق أو ينفرد بموضوع المرأة باللغة العربية أو الأردوية ، لكنه كتب وألقى في هذا الموضوع عدداً من المقالات والمحاضرات بين الحين والحين ، وقد نُشرتْ معظمها بمختلف المجلات والجرائد العربية والأردوية ولكنها كانت في حاجة إلى الجمع في كتاب مستقل .

وقد شعر أحدُ تلاميذه بضرورة هذا العمل النفيس وقام بجمع تلك المقالات والمحاضرات التي كتبت وألقيت، بالأردوية ، فنُشر الكتاب ونال بين القراء قبولاً عظيماً ونفد في مدة قصيرة .

ولقد رأيت أن أجمع ما كتب وخاطب العلامة ـ رحمه الله ـ في هذا الموضوع بالعربية كي يستفيد منه إخواننا العرب أيضاً ، فقمتُ بجمع هذه المقالات والمحاضرات الصغيرة ، أسأل الله أن ينفع بهذا العمل على قدر العناء فيه ، ويجعله خالصاً لوجهه ، إنه الرب المعين وعليه التكلان .

كتبه

المعتز بالله تعالى

عبد الماجد الغوري

حيدر آباد ٢٤/ ١/ ٢٠٠٠م

دور المرأة في بناء المجتمع الإسلامي(١)

الحمد لله والصلاة والسلام على خاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد !

فيقول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

ويقول : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

يسعدني أن أتحدث إلى نصف المجتمع العربي الإسلامي في هذا البلد ، وإلى عماد الأسرة الإسلامية وعمودها الفقري ، إلى بنات المسلمين السيدات المسلمات ، فمثل هذه الفرصة يجب أن تنتهز ويستفاد منها ، وكان رسول الله ﷺ إذا انتهى من وعظ الرجال من الصحابة رضي الله تعالى عنهم انصرف إلى وعظ النساء السيدات وكن يشكين ، ويعاتبن ، إذا كان هناك إخلال بحقِّهن ، وكان الرسول ﷺ أجلَّ من ذلك وكنت أحسب نفسي مقصراً ومسيئاً إلى نفسي وإلى مهمتي لو لم تتم لي هذه الفرصة ، فينبغي أن أشكر الذين يرجع إليهم الفضل في تنظيم هذا اللقاء الكريم .

أخواتي وبناتي العزيزات الكريمات الأصيلات في إسلاميتهن ، وفي عروبتهن ، وفي شرفهن ومجدهن ، وفي غيرتهن الإسلامية والدينية والعربية ، هوايتي في التاريخ وأكثر مؤلفاتي تدور حول موضوع تاريخي ،

---

(١) ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في كلية البنات بجامعة الإمارات في مدينة العين ، يوم الأحد ١٦ صفر ١٤٠٤هـ الموافق ٢٠ نوفمبر ١٩٨٣م .

هنالك لغزة من ألغاز التاريخ ، وهي أنه كيف استطاع المسلمون العرب الذين خرجوا من جزيرتهم ، وواجهوا حضارتين راقيتين قد بلغتا القمة في الرقي وفي تفنن المدنية ، وفي الأناقة ، كيف استطاع هؤلاء العرب الذين كانوا لا يزالون بدائيين (ولا أقول صحراويين) في معيشتهم ، حتى ينقل المؤرخ العربي الأمين الذي يحكم على غيره وعلى نفسه بصدق وصراحة ـ وهذا مما يمتاز به التاريخ العربي والإسلامي ـ يقول : لما رأى العرب الرقاق من الخبز حسبوها مناديل ، فأخذوها وصاروا يمسحون بها أياديهم ، فإذا هي أرغفة تتفتت ، ولما رأوا الكافور حسبوه ملحاً فاستعملوه في الطعام ، ثم عرفوا أنه الكافور ، هكذا كان المستوى ، وليس بعجيب ، إن أكثر من فتح العالم ، وأكثر من أنشأ حكومات راقية ومدنيات رفيعة ، كانوا بدائيين في المعيشة ، وكان عندهم شيء من التقشُّف في الحياة ، أما الأمم والشعوب التي أصبحت فريسة المدنية الزائفة المصطنعة ، فإنها تنهار بسرعة أو بعد فترة قصيرة ، كان العرب بدائيين ، وكانوا محدودين ، وكانت حياتهم في جزيرة العرب حياة بسيطة بدائية محدودة ، وكان فيها التقشف والفروسية والجلادة والغيرة .

استطاع العرب بذلك أن يحافظوا على خصائصهم العربية التي تمكنوا بفضلها أن يدوِّخوا العالم وأن ينشئوا إمبراطورية من أوسع الإمبراطوريات التي قامت في العالم ، ولكن لما خرجوا من جزيرتهم امتحنوا بمحنة عظيمة دقيقة ، ما هي تلك المحنة ؟ المحنة أنهم لم يتصلوا بالشعوب الراقية إلا عن طريق التجارة العابرة ، وعن طريق بعض الرحلات ، ولكنهم ما ذاقوا طعم المدنية وما جربوها عملياً ، فلما خرجوا من جزيرتهم ، واجهوا حضارتين من أرقى الحضارات البشرية ، الحضارة الرومانية البيزنطية التي كان مركزها القسطنطينية ، والحضارة الإيرانية الفارسية التي عاصمتها المدائن ، وكانت هاتان الحضارتان قد بلغتا من المبالغة في الإسراف وفي البذخ ، حتى أن كسرى إمبراطور إيران في أثناء لجوئه وتنقله بين البوادي

والقرى ، لمَّا لجأ إلى رجل فلاَّح فقير ، وكان قد اشتدَّ به العطش فطلب الماء ، فلما قدم إليه الماء في كوب من خشب قال : والله لو متُّ عطشاً لما استطعت أن أشرب من هذا .

إلى هذا الحد بلغت المدنية ، ومن طبيعة الإنسان أنه يخضع للشيء العالي السامي الكبير في حسابه ، هذا هو الذي سجله التاريخ وهو الذي تشهد به مشاهداتنا وتجاربنا ، فالواحد حين يزور عاصمة من عواصم أوربا والمدن الكبيرة في أمريكا يندهش ويبهر لبه ويسقط في يديه ويقف حائراً مشدوهاً أمام هذه المدنية ، وإن كان قد جربها بعض الشيء في محله ، من الذي لم يعرف منا المدنية الغربية ، وهو في ركن من أركان هذه الجزيرة أو هو في قرية بالقارة الهندية ؟ كل واحد يعرف ، يعرف بالقياس ، يعرف بالسماع ، ولكنه إذا زار عاصمة غربية يقف حائراً مشدوهاً مغلوباً على أمره .

وهنا يتساءل الدارس للتاريخ ويقول كيف استطاع العرب أن يتماسكوا وأن يحافظوا على شخصيتهم الإسلامية والعربية وعلى خصائص أمتهم وعلى إسلاميتهم ، كيف استطاعوا أن يحافظوا على العقيدة الإسلامية ، ثم زيادة عن ذلك كيف استطاعوا أن يحافظوا على الآداب الإسلامية وعلى نمط الحياة الإسلامية ، هذه لغزة تطلب جواباً دقيقاً وليس جواباً سريعاً مرتجلاً . . . لا ! إنها تحتاج إلى دراسة وإلى مقارنة أمينة من الشعوب وطبائعها وملابساتها ، وأجوائها وتجاربها ، كيف استطاع البيت العربي والإسلامي أن يحافظ على الآداب والحياة الإسلامية وعلى الحجاب والحشمة ، ويحافظ على الصلوات وعلى بساطة المدنية ؟ والجواب الدقيق الأمين والمنصف ، أن العرب المسلمين والفاتحين للعالم استطاعوا ذلك بفضل النصف الآخر من المجتمع الإسلامي وهو السيدات المسلمات .

فلولا تماسك السيدات المسلمات الصالحات القانتات ، الحافظات ،

لولا تعاونهن مع الرجال ، لولا اقتناعهن بفضل المدنية الإسلامية ، لولا تمسكهن الشديد بالعقيدة الإسلامية ، لولا غيرتهن على الإسلام وعلى أدب الإسلام لما استطاع العرب ذلك ولما كان في إمكان العرب هؤلاء الفاتحين المصابين بدهشة الفتح العقلي ، والفتح العقلي هو أشد وطأة وأعمق تأثيراً من الفتح السياسي .

وأنا أضرب لكم مثلاً : التتار أخضعوا العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري من أقصاه إلى أقصاه ، داسوه بأقدامهم وبسنابك خيلهم ، وأهانوا المسلمين إلى آخر درجة ، حتى أصبح من الأمثال السائرة والقضايا المسلّمة « إذا قيل لك أن التتر انهزموا فلا تصدّق » إلى هذا الحد بلغت الدهشة ، بسطوة التتار ، ولكن التتار قد خضعوا للإسلام والمسلمين عن طريق الحضارة الإسلامية ، إنهم هزموا المسلمين في الميدان السياسي والحربي ولكنهم انهزموا أمام الحضارة الإسلامية ، وللحضارة ما يكون من التأثير ما لا يكون للسيوف والمدمرات .

فكيف استطاع العرب أن يقفوا أمام هذا النفوذ الحضاري وهذه البهرجة الحضارية ، وهذا البريق الباهر للألباب والمعشي للعيون ، كيف استطاعوا أن يقفوا أمامه غير مأخوذين ، غير مسحورين ، غير متأثرين ؟

إن التحليل العلمي التاريخي يقول : إن الفضل في ذلك يرجع إلى الأسر الإسلامية ، كانت الأسرة الإسلامية مدرسة كاملة تربي أبناء المسلمين وتنشئهم على العقيدة الإسلامية وعلى الخصائص الإسلامية ، وكثير من كبار المجددين ومن كبار المصلحين في الإسلام إنما هم غرس أمهاتهم ، فهذا سيدنا عبد القادر الجيلاني الذي أحدث انقلاباً روحياً ، والذي قامت له حكومة ، ربما كانت أوسع من حكومة العباسيين ، هي الحكومة الروحية الخلقية ، إنما كان من غرس أمه ، يقول : لما خرجت من جيلان قالت لي أمي : يا بني ، أوصيك بوصيّة واحدة ، لا تكذب ، فتمسك بهذا حتى قال للصوص الذين أغاروا على قافلته لما سأله أحدهم هل معك شيء ؟ قال

نعم ، عندي دنانير مخيطة في الثوب ، فأخرجها ، وتاب الرجل وردت جماعة اللصوص كل ما نهبوه من القافلة .

وهكذا أنا أعرف من تاريخ الهند أكثر مما أعرف من تاريخ الإسلام العام ، فنرى أن كبار المصلحين ، والدعاة ، وكبار الحكام في الهند كانوا مدينين في تمسكهم ومدينين في إنسانيتهم الرقيقة لأمهاتهم ، ولو بدأت أحكي عن أمي رحمها الله وما كان لها من فضل في تربيتي وفي تنشئتي لكان الشيء الكثير ولكنني أستحيي .

فأقول للأخوات المسلمات : هنالك مدرسة تربي الجيل الجديد ، وهو حجر الأم الرؤوم ، فإذا كانت هذه المدرسة قائمة بدورها ورسالتها الحقيقية لما أشفقنا على جيلنا الإسلامي الجديد في العالم ، وأنا أعرف أن الزعيم محمد علي والذي كان من أقطاب حركة التحرير في الهند ، والذي كان يسيطر على قلوب المسلمين وعلى قلوب الهندوس وعلى قلوب الجماهير ، كان هو نتيجة لتربية أمه ، وقد حكى الشيء الكثير عن أساليب تربيتها ، وكيف أنشأت فيه الإيمان ، وهنالك أناشيد على لسان أمه تقول له : نفسك فداء للإسلام ، هب نفسك لله ، وهكذا .

أريد أن أقول إننا أمام الواقع المكرر ، إن الأمة العربية الإسلامية الآن تواجه الحضارة الغربية ، والحضارة الغربية من أقوى الحضارات التي عرفت في تاريخ البشر ، ولا شك في ذلك لأنها اقترنت بفتوح سياسية ، وبالفتح العقلي والفتح العلمي والتكنولوجي ، ثم صادف ذلك ضعف المسلمين الذين كانوا هم أصحاب الرسالة الأخيرة وكانوا هم القادة للإنسانية .

نحن أمام واقع أليم ومرير ، نحن لا نستطيع أن نواجه هذه الحضارة بشجاعة ، وأن نتخلص من مواضع الضعف فيها ، ونقتبس مواضع القوة فيها إلا إذا كانت الأسرة الإسلامية قائمة بروحها وبرسالتها وبخصائصها ، بل الطفل المسلم والشاب المسلم إنما ينشأان في هذه المدرسة ويتخرجان منها

ـ إذا استخدمنا المصطلحات الجامعية ـ قبل أن يتخرجا في جامعة الإمارات أو الكويت مثلاً ، فيجب أن تبقى هذه المدرسة الداخلية مدرسة الأم المسلمة على صفتها الأولى ، وأن تحافظ على قوّتها وعلى روحها .

وهذه المسؤولية ملقاة على عواتقكن أيتها الشابات والبنات المسلمات العزيزات ، فأنتن إذا أردتن أن ينشأ الجيل الجديد مسلماً في أعماق قلبه ، ومسلماً في حضارته ، ومسلماً في آدابه وفي أخلاقه وفي سلوكه ، فالمسؤولية تقع عليكن ، والله سبحانه وتعالى قد قرن الجزءين في المجتمع الإسلامي بآية واحدة في قوله : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] ، وقال : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] . وهنالك التاريخ الإسلامي وكتب التراجم حافلة بذكر السيدات الفاضلات ، العاملات المربيات المفكرات ، المعلمات المحدثات المفسرات ، الأديبات ، لو بدأت أذكر أخبارهن لضاق الوقت ، ولكنكن ستدرسن إن شاء الله في كتب التراجم ، ومنكن من تستطيع أن تنال الدكتوراه في ذكر السيدة الخنساء الشاعرة الإسلامية المؤمنة التي جهزت بنيها للقتال والموت في سبيل الله فلما سمعت بشهادتهم قالت الحمد لله الذي أكرمني بشهادتهم ، والسيدة خولة بنت الأزور المساهمة في غزوات الشام الأولى ، وفي ذكر رابعة العدوية البصرية ، والسيدة كريمة المروزية راوية صحيح البخاري(١) ، أو في ذكر بعض المسلمات الشهيرات .

والمقصود أن المجتمع الإسلامي لا يمكن أن يمشي برجْلٍ واحدة ، فكل ابن آدم يمشي برجليه ، فالمجتمع الإسلامي مجتمع حي تام ، بشري إنساني ، لا يستطيع أن يمشي برجْلٍ واحدة مهما كانت قوية ونشيطة ، وإن

---

(١) هي السيدة كريمة المروزية (٣٦٥ ـ ٤٦٣هـ) كانت تروي صحيح البخاري ، قال ابن الأثير انتهى إليها علو الإسناد للصحيح ، يقال لها أم الكرام وبنت الكرام (ملخصاً من الأعلام للزركلي) .

المجتمع الإسلامي لا يمكن أن يتحرك فضلاً عن أن يمشي إلّا برجلين سليمتين قويتين نشيطتين أميتين ، فلتكن هاتان الرجلان مثلاً للعضو البشري السليم الوفي .

وقد خلق الله في النساء كل صلاحية وكل قدرة للبلوغ إلى الكمال ، وفي التقدم في مضمار العلم وفي الربانية والروحانية والتقرب إلى الله . . فالأعلام في التاريخ الإسلامي اعترفوا بفضل بعض السيدات في عهدهم ، ويذكرون من فضائلهن الشيء الكثير ، وكيف استفادوا وانتفعوا بكلماتهن الحكيمة ، وسيرتهن العطرة وهكذا ، بل يبقى هذا التيار مستمراً ، تيار الحياة الإسلامية والعشرة الإسلامية ، والمجتمع الإسلامي في هذا العصر ، كما استمر وأدى رسالته وقام بواجبه في العصور الماضية ، ولذلك أنشئت هذه الجامعات وهذه الفروع والكليات للبنات ، وإلّا في أوربة الشيء الكثير وفي إفريقية وفي آسيا وفي غير بلاد المسلمين الكثير من الكليات النسوية ، والنساء يواكبن الرجال هنا في كل قسم من أقسام العلوم ، ولكن إنما أنشئت هذه الكليات في عقر الديار الإسلامية وفي الجزيرة العربية ـ التي كانت مهبط الوحي ومطلع نور الإسلام لهذا الغرض ـ لتشعر البنات المسلمات بواجبهن وبرسالتهن وبمسؤوليتهن نحو الأسرة الإسلامية ونحو الحضارة الإسلامية ، ونحو العصر الحاضر .

هذا ما فتح الله به عليَّ ووفقني ، ولا أريد أن أطيل عليكن وأشكر المسؤولين عن الجامعة أنهم قد فتحوا هذا المجال للحديث في هذا الوقت الذي كان وقت الدراسة ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الروح العلمية وعلى تقدير إخوانهم الذين يجيئون من بلاد بعيدة ولا يملكون شيئاً من النفوذ السياسي ولا النفوذ الاجتماعي ، إنما قيمتهم خدمة العلم والدين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

مكانة المرأة في الإسلام
وموقفه من حقوقها وحظوظها

نقدم أولًا الخلفيات التي لا بد للشعور بعظم الدور الذي قام به الإسلام في صالح المرأة ، من الاطلاع عليها ، وهنا مقتطفات من كتاب « المرأة في القرآن » للأستاذ عباس محمود العقاد ، فإنه يمتاز بالتقصي ودراسة واسعة للموضوع .

يقول المؤلف وهو يذكر مكانة المرأة في الديانات والمجتمعات القديمة السالفة على الإسلام :

« شريعة » مانو[١] في الهند لم تكن تعرف للمرأة حقاً مستقلاً عن حق أبيها ، أو زوجها أو ولدها في حالة وفاة الأب والزوج ، فإذا انقطع هؤلاء

---

(١) « مانو » (الذي أشار إليه الأستاذ العقاد) هو « منو » الذي يعتبر مصدر القانون الاجتماعي المدني العائلي في الهنادك ، وهو شخصية يكتنفها الشيء الكثير من الغموض والخيال والتقديس ، ولا يمكن تحديد عصره ولا تعيين شخصيته ، وهو يتراءى في بعض عبارات الكتب المقدسة عند الهنادك « ويدا » إلهاً فوق البشر ، ويبدو في بعض عباراتها جداً للجيل البشري وممثلاً أولًا لفاطر الكون ، وينطبق هذا الاسم والوصف على عدة شخصيات في الهند القديمة .

أما « منواسمرتي » الذي هو دستور الهند القديمة الاجتماعي والعائلي ، فهو ينسب إلى « بهركو مهاراج » أحد كبار علماء القانون في الهند القديمة ، والذي كان ينتمي في علمه وتشريعه إلى « منو » وقد اعتبر « منواسمرتي » أقدم كتاب قانوني في الهند القديمة ويذهب أكثر الباحثين إلى أنه تم تأليف هذا الكتاب في القرن الثالث قبل المسيح ، « مستفاد من كتابي الدكتور كتكاناتهه جها » ، والدكتور جيوال من كبار علماء تاريخ القانون الهندوسي .

جميعاً وجب أن تنتهي إلى رجل من أقارب زوجها أو ولدها في النسب ، ولم تستقل بأمر نفسها في حالة من الأحوال ، وأشد من نكران حقها في معاملات المعيشة ، نكران حقها في الحياة المستقلة من حياة الزوج ، فإنها مقضي عليها بأن تموت يوم موت زوجها ، وأن تحرق معه على موقد واحد ، وقد دامت هذه العادة العتيقة من أبعد عصور الحضارة البرهمية إلى القرن السابع عشر ، وبطلت بعد ذلك على كره من أصحاب الشعائر الدينية.

وشريعة حمورابي[١] التي اشتهرت بها بابل كانت تحسبها في عداد الماشية المملوكة ، يدلّ على غاية مداها في تقدير مكانة الأنثى ، أنها كانت تفرض على من يقتل بنتاً لرجل آخر أن يسلمه بنته ليقتلها أو يملكها إذا شاء أن يعفو عنها ، وقد يضطر إلى قتلها لينفذ حكم الشريعة المنصوص عليها .

وكانت المرأة عند اليونان الأقدمين مسلوبة الحرية والمكانة في كل ما يرجع إلى الحقوق الشرعية ، وكانت تحل في المنازل الكبيرة محلاًّ منفصلاً عن الطريق ، قليل النوافذ ، محروس الأبواب ، واشتهرت أندية الغواني في الحواضر اليونانية لإهمال الزوجات وأمهات البيوت ، وندرة السماح لهن بمصاحبة الرجال في الأندية والمحافل المهذبة ، وخلت مجالس الفلاسفة من جنس المرأة ، ولم تشتهر منهن امرأة نابهة ، إلى جانب الشهيرات من الغواني أو من الجواري الطليقات .

وقد كان أرسطو يعيب على أهل « أسبرطة » أنهم يتساهلون مع نساء عشيرتهم ، ويمنحونهن من حقوق الوراثة والبائنة وحقوق الحرية والظهور ما يفوق أقدارهن ، ويعزو سقوط « أسبرطة » واضمحلالها إلى هذه الحرية وهذا الإسراف في الحقوق .

ومذهب الرومان الأقدمين كمذهب الهنود الأقدمين في الحكم على

---

(١) أشهر ملوك الأسرة الحاكمة في العراق التي أسست حكومة قوية ، وحكمت قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة .

المرأة بالقصور ، حيث كانت لها علاقة بالآباء أو الزوج أو الأبناء ، وشعارهم الذي تداولوه إبان حضارتهم أن قيد المرأة لا ينزع ونيرها لا يخلع » ومن ذلك قول « كانو » المشهور (Nungi am Exuitur servitus Mulie Brio) ولم تتحرر المرأة الرومانية من هذه القيود إلّا يوم أن تحرر منها الأرقاء على أثر التمرد ثورة بعد ثورة ، وعصياناً بعد عصيان ، فتعذر استرقاق المرأة كما تعذر استرقاق الجارية والغلام .

وبعدما تحدث الأستاذ العقاد عن الحضارة المصرية القديمة التي تمتعت المرأة فيها ببعض الحقوق والاعتبارات ، قال : « بيد أن الحضارة المصرية زالت وزالت شرائعها معها قبل عصر الإسلام ، وسرت في الشرق الأوسط يومئذ غاشية من كراهة الحياة الدنيا بعد سقوط الدولة الرومانية بما انغمست فيه من ترف وفساد ، ومن ولع بالملذات والشهوات ، فانتهى بهم رد الفعل إلى كراهة البقاء وكراهة الذرية ، وشاعت في هذه الفترة عقيدة الزهد والإيمان بنجاسة الجسد ونجاسة المرأة ، وباءت المرأة بلعنة الخطيئة ، فكان الابتعاد منها حسنة مأثورة لمن لا تغلبه الضرورة .

ومن بقايا هذه الغاشية في القرون الوسطى أنها شغلت بعض اللاهوتيين إلى القرن الخامس للميلاد ، فبحثوا بحثاً جدياً في جبلة المرأة ، وتساءلوا في مجمع « ماكون » هل هي جثمان بحت ؟ أو هي جسد ذو روح يناط بها الخلاص والهلاك ؟ وغلب على آرائهم أنها خلو من الروح الناجية ، ولا استثناء لإحدى بنات حواء عن هذه الوصية ، غير السيدة العذراء أم المسيح عليه الرضوان .

وقد غطت هذه الغاشية في العهد الروماني على كل ما تخلف من حضارة مصر الأولى في شأن المرأة ، وكان اشتداد الظلم الروماني على المصريين سبباً لاشتداد الإقبال على الرهبانية والإعراض عن الحياة ، وما زال كثير من النساك يحسبون الرهبانية اقتراباً من الله وابتعاداً من حبائل الشيطان » وأولها النساء .

ومن المتواتر في أقوال أناس من المؤرخين الغربيين أن الإسلام ينقل شريعته من الشرائع التي تقدَّمته ، ولا سيما الشريعة الموسوية ، ولا يتضح بطلان هذه الدعوى من شيء كما يتضح من المقابلة بين مركز المرأة في حقوقها الشرعية كما نصت عليها كتب التوراة ، ومركز المرأة في حقوقها الشرعية التي قررها الإسلام بأحكام القرآن .

فالمأثور عن الكتب المنسوبة إلى موسى عليه السلام ، أن البنت تخرج من ميراث أبيها إذا كان له عقب من الذكور ، وما عدا هذا الحكم الصريح فهو من قبيل الهبة التي يختارها الأب في حياته ، حيث لا يجب الميراث وجوب الحقوق الشرعية بعد الوفاة .

والحكم المنصوص عليه في حق الميراث أن تحرم البنات ما لم ينقطع نسل الذكور ، وأن البنت التي يؤول إليها الميراث ، لا يجوز لها أن تتزوج من سبط آخر ، ولا يحق لها أن تنقل ميراثها إلى غير سبطها ، وجاء هذا الحكم بالنص الصريح في غير موضع من كتب التوراة .

وننتقل إلى البلاد التي بدأت فيها دعوة القرآن الكريم ، وهي بلاد الجزيرة العربية ، فلا تتوقع أن تكون للمرأة فيها قسمة من الإنصاف والكرامة غير هذه القسمة العامة في بلاد العالم على تباعد أرجائه وتنوع عاداته وشرائعه ، ولعلها كانت تسوء في بعض أنحاء الجزيرة فتهبط في المساءة إلى حضيض لم تهبط إليه في سائر الأنحاء من الأمم كافة ، وترتقي فلا يكون قصاراها من الارتقاء ، إلَّا أنها تكرم عند زوجها لأنها بنت ذلك الرئيس المهاب أو أم هذا الابن المهاب أو أم هذا الابن المحبوب ، فأما أنها تكرم وتصان لأنها من جنس النساء ، يعمها ما يعم بنات جنسها من الحق والمعاملة ، فذلك ما لم تدركه قط من منازل الإنصاف والكرامة ، وقد يحميها الأب والزوج كما يحميها الأخ والابن حماية الواجب المفروض عليه بكل ما في جواره أو كل ما في حوزته وحماه ، فيعاب على الرجل

منهم أن يهان حرمه كما يعيبه أن يعتدى عليه في كل محميّ أو ممنوع، ومنه فرسه ودابته وبئره ومرعاه .

فإذا هانت المرأة فهي عار يأنف منه أهلوه أو حطام يورث مع المال والماشية ، ومن خوف العار يدفن الرجل بنته في طفولتها ويستكثر عليها النفقة التي لا يستكثرها على الجارية المملوكة والحيوان النافع ، وكل قيمتها بين الذين يستحيونها ولا يقتلونها في طفولتها ، إنها حصة من الميراث تنقل من الآباء إلى الأبناء ، وتباع وترهن في قضاء المنافع وسداد الديون ، ولا يحميها من هذا المصير إلا أن تكون عزيزة قوم تعز بما يعز عندهم من ذمار وجوار » اهـ[١] .

قارن كل ذلك بدور الإسلام الجديد الفريد في رد الاعتبار إلى المرأة ، وإحلالها مكانتها اللائقة في المجتمع الإنساني ، والإنصاف لها من القوانين الجائرة والأعراف الظالمة وأنانية الرجال ، ولنظرة عابرة في القرآن تكفي لمعرفة الفرق الهائل بين التقييم الجاهلي للمرأة ، والتقييم القرآني الإسلامي لها ، والسلوك الفردي والتشريعات والقوانين الاجتماعية دائماً تنبثق من هذا التقييم وتقوم عليه .

إن الآيات التي وردت في القرآن عن نصف المجتمع الإنساني والجنس اللطيف تثير الثقة في المرأة بمكانتها في هذا المجتمع ومنزلتها عند الله والقدرة على الوصول إلى أعلى الدرجات في الدين والعلم وخدمة الإسلام والتعاون على البر والتقوى وتكوين المجتمع الصالح ، وتقرن المرأة دائماً بالرجل في قبول الأعمال ، والنجاة والسعادة والفوز في الآخرة ، فيقول الله تعالى :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٤] .

---

(١) المرأة في القرآن، للأستاذ عباس محمود العقاد، طبع دار الهلال مصر، ص/ ٥١ ـ ٥٧.

ويقول : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

ويقرنها به في منح الفرص والوسائل للحياة الطيبة بل يكفل بها لها ويعدها إياها ، و« الحياة الطيبة » كلمة جامعة عميقة المعاني تعطي معنى الحياة المثالية السعيدة الفاضلة ، وتشتمل على جميع شعب الكرامة والرضا وهدوء البال وما لا يأتي في الحصر :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

ويذكر الصفات الكريمة والأعمال الصالحة وشعب الدين الرئيسية ، فلا يكتفي بقرن الإناث مع الذكور ، والإشارة إلى أنه لا فرق في الأعمال الصالحة والصفات الكريمة بين الذكور والإناث وكفى ، بل العكس من ذلك يفرد الصفات صفة صفة ، فإذا وصف الذكور بها وصف الإناث بنفس الصفة وأفردهن بالذكر ، وإن طال البيان ، لأن قياس النساء في جميع هذه الصفات على الذكور ، الرجال الأقوياء الأقرباء الأغنياء ، مما لم تتعوده أذهان الناس ، التي نشأت تحت ظلال الديانات والفلسفات والمجتمعات والآداب القديمة ـ سواء الدينية أو الأدبية ـ وفرقت بينها دائماً فاستثنت الإناث من مشاركة الرجال ـ فضلاً عن مزاحمتهم والسبق عليهم ـ في كثير من مجالات الفضيلة وعلوّ الهمة .

اقرأ معي قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

ولا يكتفي القرآن بأنواع العبادات والقربات ، بل يشرك الأخوات المسلمات مع الرجال الأقوياء العلماء ، أصحاب الإرادة القوية والفتوة وعلو الهمة والصبر على المشاق والتعرض للمعارضة ، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويجعل من المؤمنين والمؤمنات كتلة مترابطة متماسكة متعاونة على البر والتقوى فيقول :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] .

ويجعل المثل الكامل والشرط لبلوغ المنزلة العليا في الكرامة الإنسانية التقوى ، بصرف النظر عن الجنس والنسل والدم ، فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وهذا كله كافل بحفز الهمم وشحذها ، وإثارة الاعتزاز والثقة في نفوس الإناث والابتعاد عما يسمى في علم النفس الحديث بمركب النقص (Inferiority Complex) وبفضل ذلك وجد تاريخ ـ بعد مبعث الرسول ﷺ إلى العصر القريب ـ حافل بأمجاد السيدات المسلمات[1] المربيات ، المجاهدات الممرضات ، الأديبات المؤلفات ، الحافظات للقرآن ، الراويات للحديث ، الزاهدات الربانيات ، المكرمات المبجلات في المجتمع ، يستفاد منهن ويتخذن قدوة ويضربن مثلاً .

أما الحقوق والحظوظ التي منح الإسلام المرأة المسلمة من حق التملك والميراث ، وحرية البيع والشراء ، والمطالبة بالتفريق إذا لزم ذلك (وهو

---

(١) راجع الكتب الخاصة التي ألفت عن فضليات النساء مثل « أعلام النساء في عالمي العروبة والإسلام » لعمر رضا كحالة ، وسيرة أم المؤمنين السيدة عائشة للعلامة السيد سليمان الندوي .

الذي يسمى بالخلع) وحق فسخ الخطبة إن لم ترض بالزواج ، وحضور الأعياد والجمع والجماعات ، إلى غير ذلك فهي مما تحويه متون الكتب الفقهية[١] .

وقد اعترف المنصفون من علماء الغرب والباحثون في علم الاجتماع وتاريخ المدنيات بما تمتاز به تعاليم القرآن والشريعة الإسلامية ، من الاحترام الممتاز للمرأة والاعتراف بحقوقها سلوكاً وتشريعاً ، ونحن نكتفي هنا بشهادتين . ونقدِّم شهادة لسيدة غربية فاضلة قامت في الهند بحركة تربوية إصلاحية ، ورأست منظمة ثقافية كان مركزها في جنوب الهند ، وساهمت في حركة التحرير الهندية ، فلشهادة المرأة قيمتها ووجاهتها ، للحساسية الزائدة التي توجد عندها في قضية المرأة والدفاع عن جنسها .

تقول أيني بيسنت (Mrs Annie Besant) :

« إن القانون الإسلامي فيما يتعلق بالمرأة من أرقى القوانين التي ظهرت في الدنيا وأكثرها عدلاً ، إنه يسبق التشريعات الغربية فيما يتعلق بالعقار وحقوق الوراثة وقانون الطلاق بشوط بعيد ، إنه حارس لحقوق المرأة ، إن كلمات « الاكتفاء بزوجة واحدة » و « تعدد الزوجات » قد سحرت الناس وصرفت أنظارهم عن التفكر في ما تعيشه السيدات الغربيات من هوان وبؤس ، وقد تركها الأزواج الأولون المسؤولون عن عصمتهن على الشوارع وقد قضوا منهن لبانتهم وزهدهم فيهن سآمة ومللاً ، فلا يلقين بعد ذلك عوناً ولا رحمة »[٢] .

ويقول الأستاذ N. L. Coulsen :

« إنه مما لا شك فيه أن التشريعات القرآنية فيما يختص بتحديد مركز النساء خصوصاً المتزوجات منهن ، من أمثل القوانين وأعدلها ، إن قوانين

---

(١) يرجع إلى كتاب « المرأة بين الفقه والقانون » للدكتور مصطفى السباعي .

(٢) The Life and Teaching of Mohammad, Madras-1932, p.3.

النكاح والطلاق في عدد كبير » وهي تهدف بصفة عامة إلى التحسين في مركز النساء في المجتمع والتقدم بهن ، وقد قامت على تغييرات ثورية في قوانين العرب التي كانت تسود قبل الإسلام ، إن المرأة منحت شخصية قانونية مستقلة لم تكن تملكها في السابق ، وإن أكبر تغيير أحدثه القرآن في أحكام الطلاق هو سن قانون العدة للمطلقة »[١] .

وكانت هذه النظرية الجديدة في المرأة واعتبارها ومعاملتها في ضوء هذه المبادىء والآيات القرآنية والتعاليم النبوية[٢] ، ولادة جديدة للجنس النسوي في العالم البشري ، إذ لم يكن بينها وبين حيوان داجن ، أو آلة صماء ، أو مودة أو رهينة، أو صورة جميلة ودمية في القصر، فرق كبير في العالم القديم كما وصفناه سابقاً، فكانت مفاجأة مباركة في عالم الحضارة والأخلاق والحياة المنزلية والرابطة الزوجية ، تجاوبت لها وكثرت بها في قليل وكثير المجتمعات والبلاد الكثيرة ، لا سيما البلاد التي دخل فيها الإسلام غازياً فاتحاً ، أو حاكماً منظماً للأمور ، أو داعياً مصلحاً ومثالاً عملياً .

إن عظمة هذه الهدية في بلاد كانت السيدات يحرقن أنفسهن بالنار على وفاة أزواجهن ولا يرين ولا يرى المجتمع لهن حقاً في الحياة بعد الأزواج ، واضحة لا تحتاج إلى تعليق .

قام الملوك ورجال الحكم المسلمون بدورهم في إصلاح الطقوس والعادات المتبعة في الهند وخاصة إصلاح تقليد ما يسمى « ستي » وهو إحراق الأرملة نفسها أثناء عملية إحراق جثمان زوجها الميت ، وذلك بدون أن يلحقوا بالمعتقدات الدينية والطقوس الهندية أي إساءة ، أو انتهاك حرمة ، يقول الرحالة الشهير الدكتور برنير (Bernier) الطبيب النفسي الذي زار الهند في عهد شاهجهان :

(١) Islamic Surveys: The History of Islamic Law (N.L.Coulsen Edimburg, 12971.p.14).

(٢) يرجع في ذلك إلى كتب الحديث ، أبواب النكاح والعشرة والأخلاق .

« لقد هبط عدد حوادث « ستي » نسبياً لأن المسلمين الذين يحكمون هذه البلاد ، يبذلون أقصى جهدهم للقضاء على هذا التقليد الوحشي ، ولو أنهم لم يسنوا أي قانون لمنع هذه الحادثة من الوقوع ، لأنهم لا يهدفون في نظام حكمهم إلى التدخل في شؤون الهنادك الدينية ، بل إنهم يسمحون لهم بالقيام بأداء واجباتهم الدينية وطقوسهم ، ويوفرون لهم كل حرية ، لكنهم يحاولون إيقاف تقليد « ستي » بطريق غير مباشر ، فلا تستطيع أي امرأة أن تقدم نفسها لـ « ستي » إلَّا بإذن من حاكم الولاية ، أما الحاكم فإنه لا يسمح لها به إلَّا إذا تأكد أنها لن تمتنع عن عزمها بأي حال من الأحوال ، ويحاول حاكم الولاية إقناع المرأة وحملها على العدول عن إرادتها ، وينفرها ويوعدها ويمنِّيها كذلك ، وعندما تخفق هذه المحاولات ولا تثمر عملية الإقناع والوعيد يرسلها إلى حرمه ، لكي تنضم إلى عقيلات الحرم ، فتقلع عن إرادتها بإقناعهن ، ولكن رغم جميع هذه التدابير لا تزال حوادث « ستي » تحدث بكثرة ، وخاصة في مناطق الراجوات (الأمراء) والأماكن الخاضعة لنفوذهم ، حيث لا يحكم المسلمون »[1] .

* * *

(١) رحلة الدكتور برنير « ج/ ٢ ، ص١٧٢ .

مساهمة المرأة المسلمة في بناء المجتمع الأفضل

الدور الذي لعبته المرأة المسلمة منذ بداية الإسلام في إثبات أن الإسلام منهج علمي ناجح ، وفي إبرازه على مسرح العالم كنظام عملي تطبيقي ، لا يمكن أن يجهله التاريخ أبداً ، فلا يستطيع أيُّ دين ونظام ولا أيُّ مجتمع بوجه خاص أن ينجح ويدوم إلى أمد بعيد إلا إذا أولاه الجنس النسوي اهتمامه البالغ وعنايته الزائدة ، وأثبت معه وفاءه وولاءه ، هنا تبرز علامة تساؤل عريضة على أفق التاريخ الإسلامي بل على أفق التاريخ العام للعالم ، وهي أن المجتمع الإسلامي كيف ظل باقياً محتفظاً بخصائصه ومزاياه رغم أنه ما زال يواجه حضارات مختلفة ومدنيات زاهرة كثيرة ، وقوانين راقية للغاية مثل القانون الروماني والفارسي والهندوكي ، وكيف صمدت الحياة المنزوية للعرب وبساطة الإسلام في وجه هذه القوانين التي كانت غاية في الرقي والخطورة والتعقد ، وكيف وقف أمام التيارات الجارفة للنظم الاجتماعية التي سهرت عليها العقول والأذهان مئات بل آلافاً من السنين ، والجواب أن أخواتنا ساعدن وتعاونَّ في هذا العمل العظيم ، فلولا تعاضد هؤلاء السيدات المسلمات الصالحات القانتات التائبات وتعاونهن مع الرجال في صيانة الهوية الإسلامية والحضارة الإسلامية ، ولولا مساهمتهن الملموسة في تأسيس النظام العائلي والأحوال الشخصية الإسلامية ، وتوطيد دعائمها ، وإنشاء بيئة إسلامية تنمو وتزدهر في ظل التربية الإسلامية ، ويسود فيها جو النزاهة والمحبة والسلام ، فلولا ذلك كله لتعذَّر على المسلمين أن يعيشوا بحضارتهم الإسلامية ومزيتهم الدينية ، ولما استطاعوا أن يحتفظوا بمدنيتهم الإسلامية بطابعها الخاص ، وإن كانت تساندهم حكومات واسعة منيعة وتعاضدهم حضارات راقية بلغت القمة في الرقي

وتفنن المدنية ، ويرافقهم نظام تعليمي واسع ، وتمتعوا بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، فبقاء المجتمع الإسلامي بمزاياه وخصائصه والثقة بالنفس والاعتزاز بها إنما هو رهن لتعاضد الأخوات ومواكبتهن لإخوانهن وآبائهن وقادة المجتمع الإسلامي ، وفضلهن لا يقتصر على حفظ الهوية الإسلامية وصيانتها فحسب بل يتجاوز إلى بقاء الكيان الإسلامي أيضاً ، فبفضلهن عاش المسلمون مع خصائصهم ومزاياهم ويعيشون اليوم في أقطار عديدة تدين بحضارات وثقافات وقوانين ونظم اجتماعية تناهض حضارة المسلمين وثقافتهم في نهاية المطاف وطول الخط ، ونتيجة لجهودهن وتضحياتهن وعواطفهن الإيمانية وصل إلينا الدين غضاً طرياً نابضاً بالحياة متمثلاً بأروع أشكاله في حضارته ومدنيته وقيمه ومثله وخلقه واجتماعه ، هذه حقيقة تاريخية ناصعة ربما يطول شرحها وقد أوجزتها لكم .

منح الإسلام للمرأة مكانة مرموقة وأثار فيها الثقة والاعتزاز بنفسها في المجتمع ، وأحدث في تاريخها بل في الحياة الاجتماعية للعالم انقلاباً مدهشاً ، مما لا يخفى على النساء المثقفات ، فلو قارنَّا الدور الجديد الفريد الذي لعبه الإسلام في رد الاعتبار إلى المرأة وإحلالها مكانتها اللائقة في المجتمع الإنساني ، ومنحها حقوقها وحظوظها والإنصاف لها من القوانين الغاشمة والأعراف المستبدة التعسفية وعنجهية الرجال وأنانيتهم ، لو قارنَّا ذلك بالتعاليم الأخرى للقوانين والديانات المختلفة في العالم لقضينا منه العجب وانبهرت عيوننا ، ولاستسلم الرجل المثقف الواقعي اعترافاً بالواقع الملموس وتقديراً له ، ونظرة عابرة في القرآن الكريم تكفي لمعرفة الفرق الهائل بين التقويم الجاهلي للمرأة والتقويم القرآني الإسلامي لها ، والقرآن الكريم لا يكتفي بذكر مساواة المرأة واشتراكها مع الرجال بأنواع العبادات والقربات فحسب بل يعتبرها في الرقابة الخلقية ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقيام بالحسبة على المجتمع الإسلامي ، ومنعه من

الانجراف مع الاتجاه الخاطىء ، وقيادته إلى الصراط المستقيم ، يعتبرها مسؤولة بجانب الرجال الأكفاء والعلماء ، وذوي الهمة والعزيمة ، والشخصيات البارزة الفذة حذو النعل بالنعل ، ويجعل من المؤمنين والمؤمنات كتلة مترابطة متماسكة متعاونة على البر والتقوى ، فيقول :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] .

بفضل هذه التعاليم السامية وجد بعد مبعث الرسول ﷺ إلى عصرنا هذا تاريخ حافل بأمجاد السيدات المسلمات المعلمات المربيات ، المجاهدات الممرضات ، الأديبات المؤلفات ، الحافظات للقرآن الكريم والراويات للحديث ، الزاهدات الربانيات اللائي قمن بخدمة العلم وبث التربية وتمتعن بشخصيات فذّة وحياة مثالية فريدة .

أما الحقوق والحظوظ التي منح الإسلام المرأة المسلمة من حق التملك والميراث ، وحرية البيع والشراء ، والمطالبة بالتفريق إذا لزم الأمر ـ وهو الذي يسمى بالخلع ـ وحق فسخ الخطبة إن لم ترض بالزواج ، وحضور الأعياد والجمع والجماعات ، إلى غير ذلك فهي مما تحويه متون الكتب الفقهية ، ويليق بالذكر أنها حقوق لا توجد إطلاقاً في بعض ديانات عريقة وحضارات راقية .

وقد اعترف المنصفون من علماء الغرب والباحثون في علم الاجتماع وتاريخ المدنيات بما تمتاز به تعاليم القرآن والشريعة الإسلامية من الاحترام الممتاز للمرأة والاعتراف بحقوقها سلوكاً وتشريعاً .

من هذه الشهادات إحداها لسيدة غربية فاضلة قامت في الهند بحركة تربوية إصلاحية ورأست منظمة ثقافية كان مركزها في جنوب الهند ، وساهمت في حركة التحرير الهندية ، فلشهادة المرأة قيمتها ووجاهتها ، للحساسية الزائدة التي توجد عندها في قضية المرأة والدفاع عن جنسها .

تقول أيني بيسنت (Mrs. Annie Besant) :

« إن القانون الإسلامي فيما يتعلق بالمرأة من أرقى القوانين التي ظهرت في الدنيا وأكثرها عدلًا ، إنه يسبق التشريعات الغربية فيما يتعلق بالعقار ، وحقوق الوراثة وقانون الطلاق بشوط بعيد ، إنه حارس لحقوق المرأة ، إن كلمات « الاكتفاء بزوجة واحدة » و « تعدد الزوجات » قد سحرت الناس وصرفت أنظارهم عن التفكير فيما تعيشه السيدات الغربيات من هوان وبؤس ، وقد تركهن الأزواج الأولون المسؤولون عن عصمتهن على الشوارع وقد قضوا منهن لبانتهم وزهدوا فيهن سآمة ومللاً ، فلا يلقين بعد ذلك عوناً ولا رحمة » .

ويقول الأستاذ N. L. Coulsen :

« إنه مما لا شك فيه أن التشريعات القرآنية فيما يختص بتحديد مركز النساء خصوصاً المتزوجات منهن ، من أمثل القوانين وأعدلها ، إن قوانين النكاح والطلاق في عدد كبير ، وهي تهدف بصفة عامة إلى التحسين في مركز النساء في المجتمع والتقدُّم بهن ، وقد قامت على تغييرات ثورية في قوانين العرب التي كانت تسود قبل الإسلام ، إن المرأة منحت شخصية قانونية مستقلة لم تكن تملكها في السابق ، وإن أكبر تغيير أحدثه القرآن في أحكام الطلاق هو سن قانون العدة للمطلقة » .

ويكتب كاتب المقال في موسوعة الديانة والأخلاق :

« لا شك أن الرسول ﷺ رفع مكانة المرأة عالية مما كانت عليها في الجاهلية ، فلم تبق إرثاً يورث بعد وفاة زوجها شأن بعض الديانات والشرائع ، بل أصبحت من أهل الوراثة ، وصارت تتمتع بالحرية التامة كأي عضو من أعضاء الأسرة ، ووجب على الزوج أن يؤدي إليها بعد الطلاق جميع ما تقرر منحها عند العقد ، كما أن نساء الأسر المثقفة بدأت تعنى بالشعر والعلوم الأخرى وخدمت بعضهن كمعلِّمة ومدرِّسة ، وأصبحت

المرأة في عامة الطبقات تساهم زوجها في فرحه وحزنه ، في المنشط والمكره ، وحظيت بكل احترام وتقدير كأم وربة بيت » .

إن هذا الدين يتضمن العقائد والعبادات ، والمدنية والحضارة ، وآداب الاجتماع والنظام العائلي ، فليس هو مجرد مجموعة من عقائد وآداب وطقوس بل هو نظام كامل يشمل جميع نواحي الحياة ، وكان المسلمون في كل عصر يؤمنون بأن هذا الدين يحمل في طيه صلاحية عظيمة لرقابة المجتمع والحسبة عليه ، فضلاً عن مسايرته ومجاراته ، مما أثار الثقة في نفوسهم ورفع من شأنهم عالياً ، وكانوا يعتزون بدينهم وينظرون إلى قيمهم وحضارتهم نظرة إجلال وتكريم ، وكانوا على اعتقاد كامل بأن الدين الذي جاء به الرسول ﷺ ليس بدين أو مجموعة عدة قوانين فحسب بل هو دين وحضارة ، له أحكامه وقوانينه ونظامه الاجتماعي ، يجمع بين المسجد والمحراب ، والدولة ودوائر الحكم ، وكان المسلمون يعتبرونه معقولاً يؤيده المنطق ، وغذاءً صحياً وبلسماً شافياً أيضاً ، لم يكونوا يرون ككثير من مسلمي اليوم بأن الإسلام أحسن دين وأنه الدين الأخير المقبول من الله ولكن المدنية شيء آخر وما علاقتها بالدين ؟ .

فإذا كان الدين شيئاً والمدنية شيئاً آخر ، فلا بأس بأن نحاكي الأمم الأخرى ونختار قانوناً مدنياً يختلف من القرآن والسنة فإنه لا يضر بالدين ولن يعارضه في جوهره وصميمه .

ومما يبعث على الارتياح والسرور البالغ أن قرار المحكمة العليا بشأن نفقة المطلقة لما أحدث ضجة واضطراباً هائلاً في المسلمين في عموم الهند ؛ فإنه لم تندد به الأخوات الساذجات غير المثقفات فحسب ، ولم تبرهن في هذا الوضع الخطير على الحمية الدينية والولاء للإسلام النساء البسيطات اللاتي لم يتلقين أي ثقافة ولم يعشن في أي مجتمع راق ، بل واكبتهن في إدارة دفة هذه الحركة نساء مثقفات من بيوتات شريفة وأسر كريمة ، فلا مساغ للناس أن يقولوا ماذا عسى أن تكون أي قيمة ووزن

لحركة يقودها رجال جهلاء وترافقهم نساء جاهلات بسيطات؟ فنشكر الله على أن هذه الحركة يقودها من الرجال والنساء مثقفون وخبراء فاقوا كثيراً من «المتنورين» و«المتقدمين» في سياحة الأرض ومتابعة الأحوال، وصاروا أدق علماً وأوسع نظراً في دراسة الحضارة الغربية والتعرف على خباياها، واطلاعهم على تاريخ أوربة والشرق أوسع منهم وأعمق، وتحظى كتبهم في الأقطار الأخرى بتجاوب فائق وتقدير عظيم كما هي مقررة في المقررات الدراسية في أقطار عديدة وتوجَّه إليهم الدعوات بشيء كثير من الإلحاح والتأكيد للحضور في الندوات العالمية والنوادي الدولية، وتفوَّض إليهم رئاسة منظمات دولية علمية، كما توجه إليهم الدعوات لإلقاء المحاضرات في الجامعات الكبرى من العالم، وأما القائدات من النساء فهن من يستحيل أن توجد نساء أكثر منهن علماً وأرقى ثقافة، ومنهن من تتمتع بالوظائف العالية والمناصب الرسمية الهامة من العضوية في البرلمان ولهن مساهمات ملموسة في هذه الحركة ونشاطات بارزة أخرى، فلا مجال إذاً أن يقال: لقد وجه نداءً فلباه جهلاء وجاهلات من القرى ليس لهن أيّ إلمام بالقضية ولا أيّ علمٍ بما يدور حولهم من الأوضاع والملابسات.

وأتذكر هنا مثلاً في الأردية يقول: «المدعي متكاسل والشاهد حذر نشيط، معناه أن صاحب القضية ساكت راض لا يتحرك ولا يثور ولكن شاهداً أجنبياً ينهض ويدافع عنه دفاعه الأخير ولا يألو في ذلك جهداً، هذا هو ما نعيشه اليوم تماماً، سيما في قضايا المرأة حيث نشاهد أن صاحب القضية الذي حياته وحقوقه واعتباراته وعواطفه مهددة بالخطر المحدق وغمط الحق والكبت المطرد، فهو هادىء مطمئن، وأما الذين ليس لهم أدنى ملابسة بالقضية فهم ليسوا براضين فحسب؛ بل يحدثون ضجة تدوي بها الأرجاء، يصيحون بملء الأشداق، أقاموا العالم وأقعدوه، أقضُّوا مضاجع النائمين ونغَّصوا راحاتهم، كأن السماء تكاد تنشق على البلاد وتخر

عليها الجبال هداً ، فهذا لغز لا نكاد نفطن ما الباعث على هذا الانفجار والحماس ؟ ولماذا يسودون صفحات الصحف بالمظاهرات والاحتجاجات ، وما يبعثهم على القيام بها وبذل النفيس والنفائس فيها ، فإذا كان ذلك لصالح الجنس النسوي والنصح معه بما أنه يتعرض للأثرة والعدوان ، والكبت فسوف أطلب منهم أن ينتبهوا ويهتموا أولاً بمجتمعهم الهندي فإنه معروف لدى الجميع أن العرائس الحديثات الزواج تحرق وتنتهك ، ويحدث هذا الحادث في دلهي عاصمة الهند فحسب بنسبة واحد في ١٢ ساعة حسبما أفادته الصحافة الوطنية (National Press) في تقرير لها ، تكتسح موجات هدايا الزواج جميع الأسر التي تنغص حياتها وتكدِّر صفوها ، النهامة والجشع الزائد للمال مسيطر على المجتمع ومتغلغل في أحشائه ، يوزن به كل شيء وتقوم به الخصال الخلقية والفضائل الإنسانية والمعاني السامية ، فمثل مجتمع ظل يتسكَّع في هذه المتاهات ويعاني من مثل هذه الأدواء والأسقام ، ويحترق في النار وتتلاطم فيه موجات الظلم والعدوان فإنه هل يسمح له ؟ ويبرر له أن يعارض مشروعاً يبحث في تأمين حقوق المرأة ويوفر لها ضماناً ، رغم أن القضية قضية شعب خاص بل قضية نساء طلقن على طريق شرعي ، فلو أجرينا الإحصائية وتتبعنا كَمْ منهن من ستواجه هذه الصعوبات والأخطار التي يصورها ويفخمها الزعماء المزعومون لوجدنا العديد قليلاً جداً .

وبالعكس من ذلك في صورة عدم التطبيق للقانون الشرعي الذي تتبناه شريعتنا نرى أن المسلمين وليس المسلمون فحسب ولا أتباع ديانة وجماعة خاصة فحسب بل نرى أن الجنس النسوي بكامله يجتاز أوضاعاً قاسية للغاية ويعاني من الأثرة وغمط الحق ما تقشعر منه الجلود ، ولم يعد خافياً ما يجري اليوم من عقد شروط خارقة للمعاني الإنسانية والاعتبارات الخلقية تحقيقاً للتمتع بحياة ناعمة والترفل في ظل من النعيم ، والمساومة عليها كالسلع في سوق المناداة ، وتفضيل المال والثروة على كل شيء ، على

العزة والكرم والحشمة والعصمة حتى الفضائل الخلقية والسيرة العطرة والجمال الجسماني ، ففي مثل هذه الأوضاع المريرة ليس النصح مع الجنس النسوي والإنسانية أن يجعلوا قضية نفقة المطلقة شغلهم الشاغل ، وحديث المجالس والنوادي ، وفي هذه الأحوال الخطيرة أي مبرِّر لأن يستقطبوا عليها جميع الطاقات من الصحافة والخطابة ونفوذ الأحزاب السياسية والثروة الفائضة .

وأريد أن أبث إلى الأخوات الكريمات مزيداً مما يجيش في صدري ويراود نفسي ، فالفرص لا تسنح دائماً ، فبكل أدب وإخلاص ، وبكل صراحة أوصيكن بالتمسك بجميع تعاليم الإسلام عملاً وتطبيقاً وأن تجعلن بيوتكن نموذجاً مثالياً بالخدمة والمحبة والإيثار والبساطة والتعاون بحيث يشمُّ الناس فيها رائحة الجنة ، وإذا زارها نساء المجتمعات والشعوب الأخرى لم يتمالكن من المصارحة بأن الحياة العائلية إنما هي حياتكن وأن لذتها وحلاوتها ليست إلَّا في مجتمعكن ، فيا أخواتي الكريمات بادرن بالمحافظة على أوامر الدين ومطالعة الكتب الدينية وتعليم الصبيان والصبيات تعليماً دينياً ، والترغيب إلى الأخلاق الصالحة وفضائل الخيرات وإلقاء حكايات الأبرار والصالحين ، مع غرس عقيدة التوحيد في القلوب وتعميرها بحب الله ، ومع الرعاية الكاملة والسهر على التربية حتى ينشؤوا ويؤتوا ثمارهم اليانعة ، تعتنين بتربية أطفالكن حتى يشبوا على الاستهانة بالمال وتزييف السمعة والشعور الجم بقيمة المثل والقيم الخلقية والأهداف السامية للحياة التي تركز عليها الجهود ، وتبذل في تحقيقها كل ما يملكه الإنسان من الذكاء والطاقة والإمكانيات والاستعدادات الكامنة .

وأنا أهنئكن على هذه الحمية الدينية التي ظاهرتن بها لتأمين الشريعة الإسلامية وصيانتها ، وسيحبها الله بما أن دوافع هذه الأنشطة والخدمات ليست إلا تلك الروح التي يحبها الله ورسوله ، وهي التي تضمن بقاء الملل

والمجتمعات والأمم والحضارات ودوامها بأوسع وأصدق أشكالها ، وبانعدامها تنعدم الحضارات والمجتمعات وتفقد النظم روحها ونفوذها ولا تتوطَّد دعائمها رغم توفر الثروات والطاقات والحكومة والوظائف والانتصارات .

* * *

المرأة ودورها في التوجيه والتربية(١)

يقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

لقد ذكر الله في هذه الآية عشر صفات كريمة ، ولم يكتف بقرن الإناث مع الذكور والإشارة إلى أنه لا فرق في الأعمال الصالحة والصفات الكريمة بين الذكور والإناث ، بل بالعكس من ذلك يفرد الصفات صفة صفة ، فإذا وصف الذكور بها وصف الإناث بنفس الصفة وأفردهن بالذكر ، وإن طال البيان ، مما يدل على مدى محبة الله مع إمائه ومدى اتساع الإمكانية والمجال لهن للتبريز في كل صفة كريمة وعمل جليل والتحلي بفضائل الأعمال ومكارم الخلق ، كما يشير ذلك إلى أن كثيراً من الديانات القديمة والنظم الخلقية كانت تعتبر المرأة سقط المتاع وتعدها فاقدة الصلاحية لإحراز كثير من الفضائل والمكارم الخلقية ـ وسيصدق ذلك المطلعون على الديانات والخلق ـ ولم يكن ذلك عاراً بالنسبة إليها ، فذكر

(١) هذه كلمة تحية ألقاها العلامة الندوي باللغة الأردوية في حفل توزيع الشهادات لجامعة نور الإسلام للبنات ، الّتي أسسها الدكتور محمد اشتياق حسين القرشي في مدينة لكهنؤ ، وذلك بمناسبة تخرج الفوج الأول للبنات في مرحلة « العالمية » في ١١/١٢/ من شوال ١٤١٢هـ وقراءتهن الدرس الأخير للبخاري على العلامة الندوي ـ رحمه الله ـ نقل هذه الكلمة إلى العربية الأستاذ أفتاب عالم الندوي .

الله تعالى هذه القائمة الطويلة للصفات الكريمة والأعمال الصالحة لكي يعرف أن الله تعالى يحب إماءه ويعطف عليهن كما يحب عباده ويعطف عليهم ، وصفاته من الرحمة والربوبية تشمل الإناث والذكور كليهما وتفيض شآبيبها عليهما على السواء ، وكان من الممكن كلياً أن يكون مجال الإيمان واليقين والطاعة والعبادة والصدق والإخلاص والصبر والإيثار والخوف والإنابة والصدقة والبر والعفة والحياء حكراً على الرجال فإن هذه الصفات والميزات وهذه الانتصارات والمهارات تتطلب همة لا تفتر ، وعزماً لا يتزحزح ، وجهوداً وتضحيات لا تعرف الخمول والنفاذ ، وكثيراً ما تذكر أسماء الرجال فقط في تاريخ الديانات والأخلاق والثقافة والمدنية ، ثم إن هناك مسؤوليات وواجبات تثقل كواهل النساء بصورة خاصة والرجال منها براء مثل مسؤوليات الشؤون العائلية وتربية الأولاد ولباسهم وغذائهم وعبادتهم والرقابة عليهم وكان من الممكن تماماً على الأقل بالنسبة إلى الولاية أن تقتصر معرفتنا على مئات بل ألوف من البررة والأتقياء والصالحين وأن لا نعرف ونسمع حتى اسم امرأة واحدة في هذا المجال الهام ، لكن هذه القائمة النيرة يتجلى فيها اسم السيدة رابعة البصرية ، واسمها معروف حتى اليوم ، وكم من صبية تسمى باسمها تيمناً وتبركاً ، وإن كتب التزكية والإحسان والسير والتراجم والتاريخ ليزخر بعباداتها وكراماتها وخوارقها وعظمتها وقبولها وتجاوبها الحار ، وبذلك فكثير من البررة والأتقياء والصالحين والعارفين تربيتهم الروحية والخلقية رهن لأمهاتهم الصالحات وقصارى جهودهن ، وقد اعترفن بذلك بأنفسهن ، ويستحيل لي أن أذكر هنا في هذه العجالة أسماء جميعهن ، وإنما نذكر كنموذج أشهر الصالحين وأتقى العارفين الشيخ الرباني عبد القادر الجيلاني رحمة الله عليه ، والشيخ المعروف في تاريخ الهند وسلطان المشايخ السيد خواجه نظام الدين فلو درسنا كتب سيرهما وتراجمهما لعرفنا مدى اهتمامهما بذكر تربية أمهاتهما وصفاء جوهما وصلاح بيئتهما ، ولأدركنا مدى شعورهما بفضل ذلك كله في تثقيف

حياتهما وتجلية خلقهما وتصفية وتزكية قلوبهما .

ومما يؤسفني بالنسبة إلى نشر المواهب العلمية والخدمات الثقافية الجليلة أن كتب التاريخ الباحثة في فضلاء الأمة تتجاوز المئات بينما الكتب المتناولة لسير فاضلات الأمة قليلة جداً ، لكن مؤلفي كتب السير والتراجم ـ رغم ذلك ـ لم يهملوا النساء كلياً ، فقد ترد إلينا أسماؤهن في مجال العلوم الدينية والإنتاجات الأدبية ، وهنا أضرب لكم مثلاً مشرقاً واحداً فقط ، من الهواية العلمية ونجاح الشغف العلمي والدراسة المضنية الناجحة مثلاً يثير الدهشة والإعجاب والانبهار والاستغراب حتى فيمن له أثارة من العلم والمعرفة والاطلاع .

هل تعرفون أي كتاب مكانته أعلى وأسمى من كل ما تحويه المكتبات الإسلامية العلمية في طياتها بعد كتاب الله ؟ هو الجامع الصحيح للإمام البخاري رحمه الله الذي لقب كتابه بـ « أصح كتاب بعد كتاب الله » ولا شك أن هذا الجامع الصحيح معيار الفضل والكمال لكل معهد ومؤسسة ، ومناسبة قراءة الدرس الأخير للبخاري تعد مفخرة ونعمة من الله تستوجب الشكر لكل مدرسة وجامعة مهما كانت واسعة وكبيرة ، وقد تم هذا الاحتفال في هذه المدرسة كذلك ، فهل تعرفون عمن بلغ هذا الكتاب الجليل في الهند وفي معظم مراكزها ومعاهدها . إنه برواية امرأة فاضلة تسمى « كريمة » وقد ورد ذكرها في كتاب موثوق به على ما يأتي :

« كريمة بنت أحمد بن محمد المروذية محدثة كانت تروي صحيح البخاري ، قال ابن الأثير : انتهى إليها علو الإسناد للصحيح ، عاشت تقريباً مئة سنة أصلها من مرو الروذ ، ووفاتها بمكة ، ويقال لها أم الكرام ، وبنت الكرام »[١] .

---

(١) الأعلام للزركلي . ج/٦ـ ص٧٨ .

إليكم الآن مجال الأدب ، حيث نلتقي بولّادة بنت المستكفي الأندلسية ، وكانت بنت شخصية عبقرية من عبقريات حكام الأندلس (أسبانيا) ، وكانت محرزة لقصبات السبق في مجال الذوق الأدبي والفطانة وبعد النظر وتفهم أسرار الأمور وخفاياها ، واسمها مشرق يتجلى في الكتب في هذا الموضوع ، وكان بلاطه الشعري والأدبي يرصع ويزين كما يزين بلاط الأمراء والسلاطين ، وكان كبار الأدباء واللغويين يضربون إليها أكباد الإبل[١] .

أما مجال الهمة والعزيمة والتضحية والإيثار وعاطفة الجهاد والحماس فيكفي لذلك مثال واحد يندر وجوده لا في تاريخ الإسلام وحده بل في تاريخ العالم أجمع ، وذلك أن السيدة خنساء رضي الله عنها تعد في طليعة الشعراء الذين حازوا الثقة والحجية في اللغة والأدب ونالوا الشهرة الفائقة في ميدان الفن والشعر ، وكان توفي لها أخواها فرثت لهما رثاء مثيراً ومؤثراً ينقطع نظيره لا في المراثي العربية بل في مراثي اللغات الأخرى في العالم ، هذه حالها قبل أن تدخل في حظيرة الإسلام ، وخنساء هذه لما احتضنت الإسلام حدثت ثورة عظيمة في نزعتها وعقليتها ، فالمرأة التي جعلت البكاء والنحيب على أخويها شعاراً لها وعادة . واقتصرت شاعريتها على ذلك ، ومن المعلوم لدى الجميع ولا سيما لدى أخواتنا وبناتنا أن الأخ والابن بينهما فرق كبير ، فالمحبة مع الأخ مهما اشتدت وتعمقت لا تعدل المحبة مع الابن إذ هو فلذة الكبد وقرة العين وجلاء البصر وأحب من النفس ، فخنساء هذه دعت أبناءها بمناسبة إحدى الغزوات وودعت منهم واحداً واحداً ، وقالت لم أرضعكم إلا لأجل هذا اليوم ، فانفروا في سبيل الله ، وارفعوا مكانتي عند الله ، وبعد ذلك وقفت تتلقى نبأ شهادة واحد تلو الآخر ، ولما تلقت نبأ شهادة ابنها الأخير لم تتمالك أن قالت ويا حسن

(١) أيضاً . ج/٩ـ ص/١٣٥ ـ ١٣٦ .

ما قالت : « الحمد لله الذي أكرمني بشهادتهم »[١] .

وهناك مجالان إضافة إلى هذه المواهب والصلاحيات والصفات أحرزت النساء فيهما قصبات السبق ، والخدمات التي تستطيع النساء تقديمها في هذين المجالين ، والدور الريادي الذي يستطعن أن يقمن به في استمرارية السلسلة السلالية للأمة الإسلامية بل في استمرارية السلسلة العقدية والخلقية والعقلية والثقافية فذلك حظهن خاصة لا يتقاسمهن أحد ، ولو لم تقدم النساء مساعداتهن الغالية في هذا المجال في كل عصر ومصر بل ولو لم يتحملن مسؤولية ذلك على عواتقهن ولم يبذلن قصارى جهودهن لتحقيق ذلك فإنه لن تدوم وتقوم هذه السلسلة المعنوية التي هي عين قيمة هذه الأمة والحجة على ضرورتها وصالحيتها وقيمتها .

العادات والصفات والمعتقدات التي يتلقنها الصبي من أمه المدرسة الأولى ، فإنها تختلط بلحمه ودمه وتصبح لحمته وسداه وتتغلغل في أحشائه ، ولا غرابة فإن الأمهات هن المدرسة الأولى وهن البذرة الأساسية فإذا كن غارسات طيبات كان غرسها قد حسن وطاب ، ومن هنا ركز أخصائيو التعليم والتربية كثيراً على أن الآثار والملامح التي ترتسم على لوح عقله الساذج في البداية فإنها لا تنطمس أبداً ، وإن حسبناها مندرسة ومنطمسة لكنها في الواقع لا تنطمس وإنما تنضغط وتختفي ، وما هي إلا طعنة أو طعنتان حتى تنكشف وتنجلي ، وبعد الاعتراف بهذا الواقع تتفاقم مسؤولية الأمهات والمعنيين بتربية الأولاد وتثقيفهن ، وإنهن يستطعن أن يرسمن آثاراً طيبةً خلَّابةً على ألواحهم البسيطة ، وليس في وسع طاقة أو تعليم أو تربية أن تمحو هذه الآثار العميقة بيسر وسهولة .

الأمهات والمربيات والنساء اللائي هن مؤثرات ومحترمات في البيوت

---

(١) كتب التراجم والتاريخ .

لا تقتصر مسؤوليتهن على أن يعلمن الأولاد اسم الله واسم رسوله ويحفِّظنهم الكلمة الطيبة، وأن يعلِّمنهم الصلاة إذا حان موعدها، حتى يتعلم الأولاد تلاوة القرآن الكريم ، ويقدروا كذلك على فهم الأردية وقراءتها وذلك في عصر تتمتع فيه اللغة الهندية وخطها بالسيطرة ومئات الآلاف من الأولاد المسلمين والمسلمات لا يقدرون حتى على كتابة سطر واحد في الأردية بل وكتابة أسمائهم وذكر أسمائهم شفوياً .

ولذلك أمثلة لا يحصيها عد ، وقد ظهرت نماذج ذلك مع الأسف في مجالس المقابلات وتقديم طلبات الدخول في المدارس أو الاشتغال بمنصب ووظيفة ، وليس ذلك إلَّا نتيجة سيئة ومصيراً مشؤوماً لإهمال التعليم والتربية في داخل البيوت وقلة المبالاة بتعريف التاريخ الإسلامي وتاريخ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والصحابة الكرام والأزواج المطهرات ، وأهل البيت رضوان الله عليهم وقادة الأمة ورواد الدين ، للبراعم والناشئين .

أضف إلى ذلك ما يتحتَّم على الأمهات والمعنيَّات بشؤون الأولاد في بيئة البيت أن تهتم بما يجب تحققه في بيئة البيوت من تكريه الشرك والكفر إلى الأولاد وتحبيب الإيمان والتوحيد والاعتزاز به إليهم ، والارتياح إلى الانتماء الإسلامي وكونهم من المسلمين ، وتعويدهم على الحمية الدينية والغيرة الإسلامية والابتعاد عن معصية الله ، والعشق مع الله ومع رسوله والشغف به إلى حد الوله والهيام ، والاشمئزاز والتقزز من المآثم والذنوب وحفظهم من اعتبار التقدم الدنيوي غايتهم ونجاحهم ووسيلة للفخفخة والظهور وتدريبهم على الصدق والتصديق ، والحنين إلى الخدمة والإيثار والتضحية والجهاد ، وتنشئتهم على العاطفة الجياشة والحماسة الزائدة لحب الوطن وخدمة الشعب ، فتحليتهم بجلائل الأعمال والصفات الكريمة هذه ليست إلَّا من مسؤولية الأمهات ، ولو لم يتحقق كل ذلك في الطفولة وفي داخل البيوت فإن كبرى جامعات العالم وأي مؤسسة تربوية رسمية

كانت أو عالمية ، عاجزة عن تحقيق هذه الأهداف وفاشلة في القيام بهذه الغايات الخطيرة .

دعوني أصارحكم بأن أولاد المسلمين ما داموا لا يشمئزون ولا يتقززون من الوثنية والكفر والشرك تقززهم من النجاسات والأشياء المنتنة ، وما داموا لا يكرهون الكفر والشرك سواء وجد ذلك عن طريق الأساطير (MYTHOLOGY) الخارجية أو الوطنية أو عن طريق الكتب المدرسية (Text Books) أو الإذاعة أو التلفاز أو المحاضرات أو كان ذلك للجهل بالدين ومبادئه وطوابعه أو بتأثير الطوائف المرتزقة الانتهازية ، فما داموا لا يكرهون الكفر والشرك كراهتهم من أن يلقوا في النار فإنه لا يمكن الاحتفاظ بإيمانهم ولا يضمن لهم صحة العقيدة واليقين ، فلكي تصبح هذه التربية وهذه المحبة والتنافر طبيعتهم الثانية وحاسة جديدة بالإضافة إلى الحواس الخمس ، إنما هو ميراث البيوتات الإسلامية ، وذلك سر استمرارية سلسلة المسلمين العقدية والمعنوية ، وما دام هذا العمل لا يتحقق في داخل البيوت بأخوات وسيدات البيوت فإنه يتعسر النجاح في تحقيقه بالمواعظ الحماسية الملتهبة ، والكتب الدينية المؤثرة ، والأساتذة الأخصائيين البارعين للمدارس العربية الدينية ، والجامعات العالمية المعروفة .

والمجال الثاني الذي تتمتع فيه النساء بالقيادة والريادة ، والسبق والبراعة هو الاحتفاظ بمزايا الإسلام الثقافية والحضارية والاجتماعية والمحافظة على بقائها واستمرارها ، وصيانتها من الثقافات غير الإسلامية والنظم الصناعية ، ولمعرفة ذلك تدعو الحاجة إلى الاطلاع على التاريخ الإسلامي القديم ومجدنا التليد .

لقد واجه الإسلام في فجره الأول تحدِّياً غريباً لم يواجهه أي دين في التاريخ ، واجه العرب الخارجون من جزيرة العرب مدنيتين راقيتين بلغتا القمة في الرقي والازدهار ودقة المعاني ورقة الحواشي ولم يجرب الناس مدنية أرقى منهما وأفخم وأعظم منذ أمد بعيد في التاريخ البشري

والحضاري ، وهاتان المدنيتان هما : المدنية الرومية والمدنية الإيرانية ؛ اللتان بلغتا القمة وقطعتا الأشواط المدهشة البعيدة في الثقافة والرسم والتصوير ، وتزيين الحياة الإنسانية وتنظيمها ، وتوفير التسهيلات والكماليات ، ومسائل المتعة والنزهة والاستراحة ، وكانتا تتمتعان بالروعة والبهاء والجذب والتأثير في حواشي الحياة ودقائقها ، وكانتا تزخران وتتدفقان بالآلات ووسائل الفرح والمتعة واللذة ومستوى العيش والطرق الراقية للأمور العائلية والملبس والمطعم وزينة البيوت ووسائل التزيين والتجميل ، وحدث عن البحر ولا حرج .

وعلى العكس من ذلك كان العرب منطوين في عهدهم البدائي بل بعبارة أصح كانوا في دور المدنية الصبيانية ، والواقع أن هذه التجربة التي واجهها المسلمون في صدر الإسلام كانت تجربة دقيقة للغاية ؛ لأن الإسلام وإن كان متحلّياً بالتعاليم السماوية والعقائد والأخلاق العالية والصفات الكريمة والآداب الحسنة لكن الروميين والإيرانيين هم الذين كانوا يتسلمون آنذاك زمام قيادة الثقافة والمجتمع ، فكان من الممكن تماماً وكانت جميع القرائن والمؤشرات تشير إلى أن العرب المسلمين السذج سيتهافتون على هاتين المدنيتين تهافت الفراش على النور والأكلة على قصعتها ويختارونهما بغثهما وسمينهما ، فإن العرب المسلمين هم قضوا حياتهم في بيئة ضيقة ومظلمة ، وكانت وسائلهم ضئيلة محدودة وكانت أرضهم جرداء من منابع الثروة والخيرات ، وعاشوا حياتهم في الخيام وبيوت القش والوبر والمدر عيشة رحلة وانتقال ، وتروي كتب التاريخ أن العرب المجاهدين والمبلغين عندما رأوا لأول مرة في زمن الغزوات والفتوحات الرقاق من الخبز في المآدب ظنوها مناديل لتنشيف الأيدي ، فلما أهووا إليها أيديهم بعد ما طعموا فإذا هي أخباز ورقاق ، وكذلك لما

رأوا الكافور لأول مرة ظنوه ملحاً وربما عجنوه مع الدقيق ظناً منهم أنه من الدقيق[١] .

فبالجملة لما ابتدأت سلسلة الفتوحات والانتصارات واجه هؤلاء البدويون البسطاء مدنية راقية وجذابة لم تخطر قط على بالهم . فكان من الممكن تماماً ، وكانت القرائن والمؤشرات تؤيد أن يتهافت عليها العرب المسلمون السذج تهافت الفراش على النور ويتداعوا عليها تداعي الأكلة على قصعتها والأيتام على فتات الطعام ، وأن يقبلوها بغثها وسمينها ويعتزوا بها ، فتتقدم بها مستويات حياتهم اليومية ومدنيتهم وملبسهم ومطعمهم مما يلجئهم إلى تجاوز الحدود الشرعية بل وانتهاك أعرافهم وتقاليدهم السائدة ، وكان من الممكن أن يختاروا كل ذلك كعلامة ، وشعار لموضة ، وتقدم ونهضة وواقعية ، وحب للفخفخة والظهور ، مما سيؤدي إلى نشوء المساوىء والآفات التي ظلت تحدث في الشعوب والأمم التي تخضع لمدنية مادية وانتهازية وصناعية ، والتاريخ يزخر بأمثلة ذلك ، ولكي نتصور ذلك ينبغي أن نشاهد الدول والأمم الشرقية ، طريقتها وأساليبها التي منيت بتقليد المدنية الغربية والسير على طريقتها صماً وعمياناً ، اقتبست منها مع علاتها وخيراتها فأغمضت عينيها تماماً عن التعاليم الدينية والحدود الشرعية وتقاليدها الثقافية التليدة .

والواقع أن المسلمين تغلبوا على هذه المشكلة الخطيرة بمساعدة كل من الرجال والنساء ، وكان في ذلك حظ كبير ودور ملموس مشكور لإيمان النساء ويقينهن وقناعتهن وبساطتهن وإخلاصهن وإيثارهن للآجلة على العاجلة وجعل وقائع الصحابيات والصالحين والأبرار والأتقياء أمام أعينهن ، ولو لم تكن مساعدات النساء وإسهاماتهن البارزة لم يكن للرجال أن يحفظوا الحياة من محاكاة المدنية الرومية ، وكان لا بد أن يهوي

(١) راجعوا كتب التراجم والتاريخ .

المجتمع الإسلامي في هاوية محاكاة المدنية الرومية والإيرانية وطريقتهما للعيش والتعامل مهما دافعوا عن ذلك دفاعهم الأخير ، ومهما شمروا عن ساعد جدهم وجهدهم في صيانة المجتمع من اقتفاء آثار المدنية الإيرانية والرومية ومهما ألقوا لذلك الخطب الرنانة والوعوظ الحماسية الملتهبة ومهما بذلوا لذلك نفسهم ونفائسهم ، ولم يكن للعلماء والواعظين والحكام والسلاطين والمسؤولين عن محاسبة الأخلاق وقواد الجيوش والضباط أن يحتفظوا بالمجتمع الإسلامي وأن يصونوا الهوية الإسلامية والحضارة الإسلامية ، فالنساء لهن دور ملموس رائع وإسهام ريادي بارز لا في الاحتفاظ بالهوية الإسلامية وحدها بل في الذود عن حياض الشريعة الإسلامية وصيانة كيانها .

وإن كانت في هذه الأيام قوة تقوم بصيانة المجتمع الإسلامي من التردي في هاوية محاكاة الحضارة الغربية وتقوم بسد الموجات العارمة المكتسحة من الحضارة الهندوكية الأسطورية ومنعها من التفشي والانتشار في المجتمع الإسلامي ، فهذه القوة لا محالة تتمثل في أخواتنا وسيداتنا والتعليم الديني الصحيح للنساء المسلمات وتربيتهن التربية الإسلامية الدينية الهادفة ، وتزويدهن بالخلق الإسلامي ، والسيرة المثالية للنبي ﷺ والصحابة الكرام ، وإيثارهن للحضارة الإسلامية على غيرها من الحضارات والثقافات الصناعية الأخرى .

هذا الواقع دافع قوي من دوافع الضرورة الأكيدة والحاجة الملحة لإنشاء نظام التعليم والتربية لطبقة النساء ، فنشكر الله على أن الجامعات والمعاهد التي تتأسس باسم « مدارس النساء » و « جامعة الصالحات » و « جامعة نور الإسلام » هي خطوات بناءة هادفة وعاقلة ومؤثرة لتحقيق الغرض المنشود ، وسيكون ذلك ذريعة ووسيلة ناجحة لصيانة الناشئين والجيل الناهض من الردة الحضارية ؛ بل وفوق ذلك من الثورة العقدية في الأجيال الناشئة الحديثة ، وسيكون ذلك بإذن الله قاعدة صلبة ننطلق منها

لمواجهة أعدائنا والصمود في وجه مؤامراتهم وإجراءاتهم التعسفية ، ولو واصلنا هذه المسيرة المشجعة المباركة بجد وجهد وإخلاص وتضحية وعقل وبصيرة فمن المرجو أن نصر الله سيكون حليفنا وتوفيقه مساعدنا وتوجيهه قائدنا مهما وعرت الطريق وكثرت الذئاب ، وصدق الله العظيم حيث قال : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد : ٧] .

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الكتاب	٥
دور المرأة في بناء المجتمع الإسلامي	٧
مكانة المرأة في الإسلام ، وموقفه من حقوقها وحظوظها	١٤
مساهمة المرأة المسلمة في بناء المجتمع الأفضل	٢٤
المرأة ودورها في التوجيه والتربية	٣٣
فهرس الموضوعات	٤٤

* * *

Women's Status In Islam

Articles By:
Sayyid Abul Hasan Ali Nadwi
Edited and Reviewed By:
Sayyid Abdul Majid Ghouri

هذا الكتاب

حظيت المرأةُ المسلمة بطائفة من المقالات الهادفة بيراع العلاّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمه الله ـ، باعتبارها نصف المجتمع العربي الإسلامي، وعماد الأسرة، وعمودها الفقري، ولها حقوق كثيرة، وعليها واجبات عديدة.

ولا يقوم المجتمع الصالح إلا بصلاح المرأة، والاحتفاظ بخصائصها ومزاياها، ومعرفة مهمتها، والمسؤولية الملقاة على كاهلها.

وهذا الكتاب يحتوي على مقالات ومحاضرات للعلامة أبي الحسن الندوي ـ رحمه الله ـ تتعلق كلها بموضوع المرأة المسلمة، وننشرها اليوم لتكون نبراساً هادياً، ونوراً ساطعاً، وبيّنة لكل من ألقى السمع وهو شهيد، راجين أن تكون لبنةً لبناء المجتمع، وتصحيح مسيرة المرأة في هذا العصر.

دار ابن كثير
دمشق ـ ص.ب ٣١١
بيروت ـ ص.ب ٦٣١٨/ ١١٣